(١)

وأقيموا الشهادة لله [١]

● **الخطبة الأولى :**

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله ؛ القائل في كتابه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ (التوبة:١١٩) .

وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ؛ الصادق الأمين . صلى الله عليه ، وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين .

أما بعد . . . فيا أيها الإخوة المسلمون :

حيرة والإيمان هو العاصم :

في غبار المعركة الانتخابية ، وفي زحمة التنافس بين المرشحين ؛ قد يلتبس الحق بالباطل ، ويؤثر الناس المنفعة على الواجب ، والنزعة الخاصة على المصلحة العامة ، وينقادون للعصبية الجاهلية لا للحق المبين .

ويقف الرجل الحريص على إرضاء ربه ، وراحة ضميره ، وأداء واجبه ، مراعيا توجيه مقتضيات الإيمان في هذا الظرف الدقيق .

---

(١) ألقيت هذه الخطبة بجامع الزمالك في ٢١ من ذي القعدة ١٣٧٦هـ الموافق ٣١ مايو ١٩٥٧م، وأذيعت من إذاعة القاهرة فهي من الخطب القديمة .

شهادة يترتب عليها مصير أمة :

أيها الناخب الأمين : إن صوتك الذي تدلي به في الانتخابات ليس كلمة عابرة ، ولا مسألة تافهة ، ولكنها . . شهادة خطيرة ؛ تسأل عنها : أمام الله ، وأمام الأمة ، وأمام التاريخ .

شهادة لا يترتب عليها دفع غرامة ، أو سداد دَيْن ، أو إيجاب نفقة ، أو تقرير عقوبة ؛ كغيرها من الشهادات . ولكنها شهادة يترتب عليها كيان مجتمع ، وسياسة حكومة ، ومستقبل أمة ؛ فانظر ماذا يجب عليك ، حتى تكون بمنجاة من سخط الله ، وذم الناس ، وخصوصاً المؤمنين ، فإنهم شهداء الله على الأرض .

توجيهات حكيمة في باب الشهادة :

إن للدين توجيهات حكيمة في باب الشهادة لا بد أن نرعاها .

ولا تكتموا الشهادة :

لقد أمر الله بأداء الشهادة ، وأنذر بالوعيد الشديد من يكتمها ؛ فقال تعالى : ﴿ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة:٢٨٣) ، **وقال سبحانه :** ﴿ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا ﴾ (البقرة:٢٨٢) .

وحذّر الله أشد التحذير من شهادة الزور ، وقول الزور ، حتى قرن ذلك مع الشرك بالله في سياق واحد ؛ في آية واحدة ، فقال سبحانه : ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾ (الحج:٣٠) .

وجعل من أوصاف عباده المقربين أنهم : ﴿ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ (الفرقان:٧٢).

وفي الصحيح قال ﷺ : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر » ثلاثا . قالوا : بلى يا رسول الله . قال :« الإشراك بالله وعقوق الوالدين » وجلس ، وكان متكئا فقال : « ألا وقول الزور » فما زال يكررها حتى قلنا : ليته يسكت[1] .

---

(١) رواه البخاري في الأدب (١٢٦) عن أبي بكرة .

على مثل ضوء الشمس فاشهد :

ولا يكتفي الإسلام من المرء أن يجتنب الزور في شهادته فحسب . ولكنه يطالبه بالتثبيت فيما يشهد فيه ، والتحقق ممن يشهد له أو عليه ، حتى يأتي بالشهادة على وجهها الأكمل ، يقول تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ ﴾ (المائدة:١٠٨)، وروي في الحديث :« على مثل ضوء الشمس فاشهد »[1].

فإذا شهدت لرجل بالأفضلية فاعرف شخصيته معرفة فاحصة ، فإذا عرفت ماضيه وحاضره ، ودرست غايته ووسائله ، واطمأننت إلى أفكاره وأخلاقه وكفايته ؛ فتقدم وَزكِّه وأنت واثق ، واشهد له وأنت مطمئن الفؤاد ، حتى إن تغير بعد ، أو حاد فحسبك أن تقول : ﴿ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴾ (يوسف:٨١).

شهد رجل لآخر عند عمر رضي الله عنه بالصلاح وأثنى عليه خيرا ، فقال عمر : أنت جاره الأدنى الذي يعرف مدخله ومخرجه ؟

قال : لا .

قال : أعاشرته في السفر الذي يستدل به على مكارم الأخلاق ؟

قال : لا .

قال : أعاملته بالدينار والدرهم الذي يستبين به ورع الرجل ؟

قال : لا .

---

(١) جزء من حديث ونصه : عن ابن عباس قال : سئل النبي ﷺ عن الشهادة قال : « هل ترى الشمس؟ » قال : نعم . قال : « على مثلها فاشهد أو دع ». رواه البيهقي في الشعب (٧/ ٤٥٥) وأبو نعيم في الحلية (١٨/٤) وقال: غريب من حديث طاووس تفرد به عبيد الله بن سلمة عن أبيه ،وقال ابن حجر في تلخيص الحبير (٤/ ١٩٨) : في إسناده محمد بن سليمان بن مسمول وهو ضعيف ، وضعفه الألباني في شرح العقيدة الطحاوية (٥٩٤).

قال عمر : أظنك رأيته قائما في المسجد يهمهم بالقرآن ، يخفض رأسه تارة ، ويرفع أخرى ؟ قال : نعم .

قال : اذهب فلست تعرفه . وقال للرجل : اذهب فأتني بمن يعرفك[1] .

الشهادة لله :

ومن توجيهات الإسلام في الشهادة : أن تكون لله وحده . قال تعالى : ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَـٰدَةَ لِلَّهِ ﴾(الطلاق:٢)، ومعنى إقامة الشهادة لله،أن تكون لوجه الحق الذي يرضاه ، ويأمر به لا لقرابة أو صداقة ، أو جوار ولا لهوى ، أو رشوة ، أو منفعة شخصية ، فإن الله عز وجل أمرنا بالعدل الكامل في أداء الشهادة : العدل الذي لا يتأثر بعواطف الحب مع من نحب ، ولا بمشاعر الكره مع من نكره . قال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ (النساء:١٣٥) وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ ﴾ (الأنعام:١٥٢) . وقال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ (المائدة:٨).

كيف يُختار الرجال؟

أيها الناخب الأمين : إن مما يطالبك به الدين : أن تعرف الموازين الأصيلة ، التي بها ترجح وتختار الرجال . وهنا نذكر تلك الكلمة التي حكاها القرآن عن ابنة الشيخ الكبير ؛ في شأن موسى : إذ قالت لأبيها : ﴿ يَـٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴾ (القصص:٢٦)، القوة والأمانة : هما الركنان اللذان يقوم عليهما بنيان كل عمل يُسنَدُ إلى الإنسان .

---

(١) رواه البيهقي في الكبرى كتاب آداب القاضي (١٠/ ١٢٥).

والقوة : هي الكفاءة في العمل ، والقدرة على أدائه بإجادة وإتقان ، بما عند صاحبها من أهلية وخبرة ، واستعداد ومران .

والأمانة أساسها : ضمير حي يجعل المرء يخشى الله ، ويخاف حسابه ، ويعرف ما له وما عليه ، فلا يبيع أمته بشخصه ، ولا دينه بدنياه . فهو يُؤْثر الآخرة على الأولى ، والحق على الهوى .

الأمانة وحدها لا تكفي :

ويحدثنا القرآن عن رجل أوتي العلم والعرفان ، ولم يؤت الخلق والإيمان فقال : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ (الأعراف:١٧٥) .

وقد يكون الرجل ذا أمانة ، ولكنه ضعيف الحيلة ، قليل المواهب ، عاجز عن النهوض بمهمته ؛ فماذا تُغني عنه الأمانة إذا لم تسندها القدرة والكفاية؟ أرأيتم إلى أبي ذر ذلك المؤمن المجاهد الصدوق ، الذي قال فيه الرسول : « ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء أصدق لهجة من أبي ذر »[1] .

لقد سأل أبو ذر رسول الله أن يوليه عملا فقال له في صراحة : « يا أبا ذر إنك ضعيف ! وإنها أمانة ، وإنها خزي وندامة يوم القيامة ؛ إلا من أخذها بحقها ، وأدّى الذي عليه فيها »[2] .

---

(١) رواه أحمد (٦٥١٩) عن عبد الله بن عمرو ، وقال مخرّجوه : حسن لغيره وهذا إسناد ضعيف ، والترمذي في المناقب (٣٨٠١) وقال : وهذا حديث حسن ، ورواه ابن ماجه في المقدمة (١٥٦) وابن أبي شيبة في مصنفه (٢٤٨٨) والبزار في مسنده (٢٤٨٨) وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٢٤٨٨) .

(٢) رواه مسلم في الإمارة (١٨٢٥) عن أبي ذر ، والحاكم في معرفة الصحابة (٤/ ١٠٣) .

لا بد من الكُفء الدَّين :

ومن هنا كان اجتماع القوة والأمانة ، أو الكفاية والديانة في شخص واحد قليلا في الناس ؛ حتى إن عمر كان يقول : اللهم إني أشكو إليك جلد الفاجر وعجز الثقة[1] .

وجلس مع قلة من الصحابة يوما فقال لهم : تمنوا فتمنى هذا مالا وذاك خيلا ، وذلك سلاحا ، ليستعينوا بها على الجهاد في سبيل الله ، فقال عمر ﷺ ـ الخبير بما تحتاج إليه الأمم والرسالات ـ : أما أنا فأتمنى رجالا مثل : أبي عبيدة ، ومعاذ بن جبل ، وسالم مولى حذيفة ؛ فأستعملهم في طاعة الله[2] .

وقد جاء في الحديث :« من قلد رجلا عملا على عصابة ـ أي جماعة من الناس ـ وهو يجد في تلك العصابة أرضى منه ؛ فقد خان الله وخان رسوله وخان المؤمنين »[3] .

فاللهم هيئ لأمتنا الرجال الأقوياء والأمناء ، وحل بينها وبين الفجرة والضعفاء ، إنك نعم المولى ونعم النصير .

* * *

● **الخطبة الثانية :**

أما بعد . . . فيا أيها الإخوة المسلمون :

الحمد لله ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، صلوات الله وسلامه عليه ، ورضي الله عن آله وأصحابه ، ومن اتبع هداه .

قال بعض الحكماء : إذا صلح الراعي صلحت الرعية .

---

(١) ذكره ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٢٨/ ٦٨) وفي السياسة الشرعية ص ٢٩.

(٢) القصة ذكرها الجاحظ في البيان والتبيين ، ص ٤٦١، ط دار صعب – بيروت ، ١٩٦٨م .

(٣) رواه الحاكم في الأحكام (٤/ ١٠٤) عن ابن عباس مختصرا ، وقال : حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وحذفه الذهبي من التلخيص ، والبيهقي في الكبرى في آداب القاضي (١٠/ ١١٨) ورواه الطبراني في الكبير (١١/ ١١٤) مطولا ، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة (٤٥٤٥).

وقال آخرون : بل إذا صلحت الرعية صلح الراعي .

وأولى الأمم بهذه الحكمة الثانية الأمم الدستورية البرلمانية ، التي انتخبت رؤساءها ، وتختار حكامها ، فهم أحق من يقال لهم : كما تكونوا يول عليكم.[1]

فلنفتش جيدا عمن نضع فيه ثقتنا ، ولنراقب الله فيمن نسند إليه أمرنا ، فإن إسناد الأمور إلى أهلها أمر يستقر به المجتمع ، وتشيع به السعادة ، ويحلو به طعم الحياة ، أما اختلال الموازين ، وتقديم من لا يستحق التقديم ؛ فأمر ينغص الحياة ، ويمسخ وجهها في أعين الأحياء .

ففي الحديث الذي رواه البخاري : « إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة » قال : وكيف إضاعتها؟ قال : « إذا وُسِّد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة »[2] .

* * *

---

(١) رواه البيهقي في الشعب (٦/٢٢) عن يونس بن أبي إسحاق عن أبيه بلفظ :« كما تكونوا كذلك يؤمر عليكم» وقال : هذا منقطع وراويه يحيى بن هاشم وهو ضعيف ، وقال العجلوني في كشف الخفاء : قال في الأصل : رواه الحاكم ، ومن طريقه الديلمي عن أبي بكرة مرفوعا ، واخرجه البيهقي بلفظ « يؤمر عَليكم» بدون شك وبحذف أبي بكرة فهو منقطع ، وأخرجه ابن جميع في معجمه والقضاعي عن أبي بكرة بلفظ :« يولى عليكم» بدون شك ، وفي سنده مجاهيل ، ورواه الطبراني بمعناه عن الحسن : أنه سمع رجلا يدعو على الحجاج ، فقال له : لا تفعل إنكم من أنفسكم أتيتم ، إنا نخاف إن عزل الحجاج أو مات أن يتولى عليكم القردة والخنازير ، فقد روي أن أعمالكم عُمالكم ، وكما تكونوا يولى عليكم. (٢/ ٩٩٢) ، وقال الشوكاني في (الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة ، ص٢١٠) : في إسناده وضّاع وفيه انقطاع. وذكره الألباني في السلسلة الضعيفة (٣٢٠). والذي عند الحاكم : عن صعصعة بن صوحان قال : خطبنا علي ﷺ حين ضربه ابن ملجم فقلنا : يا أمير المؤمنين استخلف علينا. فقال : أترككم كما تركنا رسول الله ﷺ . قلنا : يا رسول الله استخلف علينا فقال : « إن يعلم الله فيكم خيرا يول عليكم خياركم» قال علي : فعلم الله فينا خيرا ، فولّى علينا أبا بكر ﷺ ». وحذفه الذهبي من التلخيص لضعفه (٣/ ١٥٦).

(٢) رواه البخاري في العلم (٥٩) عن أبي هريرة ، وأحمد في المسند (٨٧٢٩).

(٢)

محمد الرسول المجاهد[١]

● **الخطبة الأولى :**

أما بعد . . . فيا أيها الإخوة المسلمون :

الاحتفال بمولد الرسالة ليس بدعة :

كلما أهل علينا شهر ربيع الأول ، هبت علينا ذكريات رسول الله ﷺ وذكريات مولده عليه الصلاة والسلام ، ففي شهر ربيع الأول وُلِد محمد ﷺ ، وفيه هاجر . هذا النبي الكريم من حقه علينا أن نتذكر سيرته كلما جاءت مناسبة من المناسبات ، وليس هذا من الاحتفال المبتدع ، فنحن إنما نُذكّر الناس بهذه السيرة ، ونربطهم بهذه الرسالة المحمدية ، وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يذكرون رسول الله ﷺ في كل حين ، ويقول سعد ابن أبي وقاص : كنا نروي لأبنائنا مغازي رسول الله ﷺ كما نحفظهم السورة من القرآن[٢] ، يروون لهم ما حدث في بدر ، وما حدث في أحد ، وما حدث في الخندق ، وفي بيعة الرضوان . . إلخ ، فلذلك علينا أن نهتدي بالصحابة ، وننتهز الفرصة بعد الفرصة ؛ لنذكر الناس بالرسول الكريم ﷺ .

---

(١) ألقيت هذه الخطبة بمسجد عمر بن الخطاب بالدوحة ، في يوم الجمعة ١٣ ربيع الأول ١٤٢٢هـ ، الموافق : ٨ يونيو ٢٠٠١م .

(٢) انظر : سيرة ابن كثير ج٢ ص ٣٥٢.

حينما نحتفل بمولده[1] عليه الصلاة والسلام ؛ ففي الحقيقة إننا لا نحتفل بمولد شخص ، إنما نحتفل بمولد رسالة . رسالة ظهرت على يد رسول الله ﷺ . فحديثنا عن الرسول باعتباره مرسلاً لا باعتباره شخصاً ، أو باعتباره شخصاً أعدته العناية الإلهية ليحمل الرسالة الخاتمة للبشرية ، ويحمل الرسالة العالمية ، التي امتدت طولاً حتى شملت آباد الزمن ، وامتدت عرضاً حتى انتظمت آفاق الأمم ، وامتدت عمقاً حتى استوعبت شئون الدنيا والآخرة[2] ، وصدق الله العظيم إذ يقول لرسوله : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (النحل:٨٩) ، ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (يوسف:١١١) .

لماذا الحديث عن الرسول المجاهد ؟

عن هذا الرسول وعن رسالة يكون حديثنا أيها الإخوة ، ولن نتحدث في هذه المناسبة إلا عن جانب واحد من جوانب السيرة النبوية ، الشاملة الجامعة العاطرة ، وهو جانب الجهاد في سبيل الله ، نتحدث عن محمد المجاهد ، لن نتحدث عن محمد الزاهد ، ولا عن محمد العابد ، ولا عن محمد الأخلاقي ، ولا عن محمد في جوانب كثيرة جداً . . . . ولكن نتحدث عنه في جانب الجهاد ، فما أحوج الأمة في هذه الآونة ـ التي تتخاذل فيها عن واجبها نحو نصرة إخوانها في المسجد الأقصى ـ ما أحوجها إلى أن تُحدّث عن الجهاد وتُذكر بالجهاد .

---

(١) راجع لنا فتوى حول الاحتفال بالمولد النبوي ، على موقعنا (www.qaradawi.net) .

(٢) من كلام الإمام الشهيد حسن البنا ، انظر : كتاب شيخنا (الخصائص العامة للإسلام) ص ٩٥.

كان رسول الله ﷺ سيد المجاهدين ، كما كان في كل شيء هو السيد والإمام ، والقائد والمقدَّم والمُفضَّل على غيره ؛ في كل ناحية من نواحي حياته : هو الأول ؛ هو العابد الأول ، والزاهد الأول ، والمجاهد الأول ، هو أول كل شيء ، يتباهى به الناس ، ويتغنّى به الناس ، فكان هو المجاهد الأول .

مراتب الجهاد عند ابن القيم :

ابن القيم رحمه الله ذكر في الجهاد ثلاثة عشرة مرتبة[1] ، جهاد النفس أربع مراتب ، وجهاد الشيطان مرتبتان ، وجهاد الكفار أربع مراتب ، وجهاد الظالمين والمبتدعين والفسقة ثلاث مراتب[2] .

النبي ﷺ جاهد نفسه في سبيل الله :

والنبي ﷺ كان حظه الأوفى من هذه المراتب كلها ، جاهد نفسه في سبيل الله ليكون خلقه القرآن كما وصفته عائشة[3] ، فلا بد أنه كان ممن تحقق فيهم قول الله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ (العنكبوت:٦٩) جاهد نفسه الأمارة بالسوء حتى أصبحت نفساً لوامة ، ثم نفساً راضية مطمئنة ، ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴾ (الفجر:٢٧) .

كانت نفسه نفساً مطمئنة ، باليقين بالله ، بعد طول جهاده لنفسه ، منذ كان شاباً ؛ بل منذ كان صبياً ، لم يُعرف عنه أنه دخل فيما يدخل فيه أهل الجاهلية ،

---

(١) تحدث فضيلة الشيخ عن هذه المراتب بالتفصيل في كتابه (فقه الجهاد) نشر مكتبة وهبة ، القاهرة.

(٢) انظر : زاد المعاد (٣/٥-١٢) طبعة الرسالة بتحقيق شعيب وعبد القادر الأرناؤوط .

(٣) إشارة إلى حديث عائشة ، رضي الله عنها حين سألها سعد بن هشام بن حكيم : يا أم المؤمنين أنبئيني عن خلق رسول الله ﷺ. قالت : ألست تقرأ القرآن ؟ قلت : بلى . قالت . فإن خلق نبي الله ﷺ كان القرآن . رواه مسلم في صلاة المسافرين (٧٤٦) وأبو داود في الصلاة (١٣٤٤) والنسائي في «السنن الكبرى» كتاب الصلاة (١٤١٨) وفي «المجتبى» كتاب قيام الليل (١٦٠١) .

لم يسجد لصنم ، ولم يشرب خمراً ، ولم يشارك في لهو الجاهلية[1] ، بل كان إنساناً صُنِع على عين الله ، واصطنعه الله لنفسه ، واصطفاه من بين خلقه ، فرُبّي تربية خاصة ، أدبه ربه فأحسن تأديبه ، وعلمه فأكمل تعليمه ، وأعده للرسالة العظمى ، ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴾ (الضحى:٦،٧) هداه الله وهو في حيرة الجاهلية ، استخرجه الله من براثن الجاهلية ليعده ليكون الرسول الأعظم ، ليكون حامل الرسالة العامة الخالدة إلى البشرية إلى أن تقوم الساعة ، جاهد نفسه في الله ، وجاهد شيطانَه ، حتى أسلم شيطانُه ، يقول النبي ﷺ « ما من أحد منكم إلا وله شيطان ، قالوا : حتى أنت يا رسول الله ؟ ! قال : حتى أنا ، إلا أن الله أعانني عليه فأسلم ، فلا يأمر إلا بخير »[2] حتى الشيطان استجاب له وأطاعه ، وأصبح لا يأمره إلا بخير ، أصبح ينبوعاً من ينابيع الخير ؛ يتدفق بالهدى في كل مجال ، عن يمين وشمال .

---

(١) فعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «ما هممت بقبيح مما كان أهل الجاهلية يهمون به ، إلا مرتين من الدهر ، كلتيهما يعصمني الله منهما ، قلت ليلة لفتى كان معي من قريش بأعلى مكة في أغنام أهله يرعاها : أبصر إليَّ غنمي حتى أسمر هذه الليلة بمكة ، كما يسمر الفتيان ، قال : نعم ، فخرجت ، فجئت أدنى دار من دور مكة ، سمعت غناء ، وضرب دفوف ، ومزامير ، فقلت : « ما هذا ؟ » فقالوا : فلان تزوج فلانة ، رجل من قريش تزوج امرأة من قريش ، « فلهوت بذلك الغناء وبذلك الصوت حتى غلبتني عيني ، فما أيقظني إلا حر الشمس ، فرجعت» فقال : ما فعلت ؟ « فأخبرته ، ثم قلت له ليلة أخرى مثل ذلك ، ففعل ، فخرجت ، فسمعت مثل ذلك ، فقيل لي مثل ما قيل لي ، فلهوت بما سمعت حتى غلبتني عيني ، فما أيقظني إلا مس الشمس ، ثم رجعت إلى صاحبي» فقال : فما فعلت ؟ قلت : « ما فعلت شيئًا » ، قال رسول الله ﷺ : « فوالله ما هممت بعدها بسوء مما يعمل أهل الجاهلية حتى أكرمني الله بنبوته ». البداية والنهاية لابن كثير (ج٢/ ٢٨٧).

(٢) رواه مسلم في صفة القيامة والجنة والنار (٢٨١٤) عن ابن مسعود.

جهاد في كل جهة وبكل سلاح :

هذا هو محمد ﷺ ، جاهد نفسه في الله ، وجاهد شيطانه في الله ، وجاهد المشركين والمنافقين كما أمره ربه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (التوبة:٧٣) ، (التحريم :٩) . جاهد الكفار بنفسه ، وجاهدهم بماله ، وجاهدهم بلسانه ، وجاهدهم بيده ، بكل أنواع الجهاد ، قال الله تعالى له ، وهو في مكة في سورة الفرقان ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ۝ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ (الفرقان:٥١،٥٢) . ﴿ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ ﴾ أي بالقرآن ﴿ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ ، هذا الجهاد الكبير هو : جهاد الدعوة والبيان والتبليغ عن الله عز وجل .

لم تكن مجابهة المجتمع الجامد بالأمر السهل :

ولا تظنوا أيها الإخوة : أن هذا كان أمراً سهلاً ، إن مجابهة مجتمع وثني مصرّ على الوثنية، مقتنع بما كان عليه الآباء والأجداد، لا يحاول أن يُمتحن فيما كانوا عليه ، كانت أمرا صعبا ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ (المائدة:١٠٤) . كان هذا أمرا عسيرا .

هذا المجتمع الجامد الذي وقف على التقليد ، قلّد تقليداً أعمى ، لم تكن مجابهته بالأمر السهل . حينما يقول لهم : إن آلهتكم هذه ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ﴾ (النجم:٢٣) ، إنها لا تبصر ولا تسمع ، ولا تعطي ولا تمنع ، ولا تضر ولا تنفع ، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ (الأعراف:١٩٤،١٩٥) ، كيف تعبدون هذه الأشياء التي

ليس لها حتى ما للإنسان ولا للحيوان؟! هذه الحجارة الصماء . ولكن القوم قد أغلقوا عقولهم فلا يعقلون ، وأغلقوا أعينهم فلا يبصرون ، وأغلقوا آذانهم فلا يسمعون ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴾ (فصلت:٥) .

هكذا كان موقفهم ، وهكذا ظلَّ رسول الله ﷺ ثلاثة عشر عاماً يدعوهم إلى الله لا يكف ، دعاهم ليلاً ونهاراً ، وسراً وجهاراً ، وصدع بما أمره الله حينما قال له الله : ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (الحجر:٩٤) .

وجمعهم عند الصفا وقال لهم :« يا معشر قريش أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي ؛ تريد أن تُغير عليكم أكنتم مصدقيّ ؟» لو قلت لكم : إن وراء هذا الوادي القريب عدواً جاء بخيله ورجله ، يريد أن يغير عليكم ، أكنتم مصدقيّ ؟ قالوا : نعم ، ما جربنا عليك كذبا ، قال : «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد» ، وهنا قام عمه أبو لهب وقال له : تباً لك سائر هذا اليوم ألهذا جمعتنا؟ ونزل قول الله تعالى يدافع عن رسوله وحبيبه ﷺ : ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ (المسد:١-٥) [1] .

---

(١) رواه البخاري في الجنائز (١٣٩٤) عن ابن عباس ، ومسلم في الإيمان (٢٠٨) وأحمد في المسند (٢٨٠١) والترمذي في تفسير القرآن (٣٣٦٣) والنسائي في «السنن الكبرى» في التفسير (١١٦٥٠). ولفظ البخاري : عن ابن عباس لما نزلت ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾(الشعراء:٢١٤) . صعد النبي ﷺ على الصفا ، فجعل ينادي ؛ يا بني فهر ، يا بني عدي ، لبطون قريش ، حتى اجتمعوا ، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر ما هو. فجاء أبو لهب وقريش ، فقال : «أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟!». قالوا : نعم ، ما جربنا عليك إلا صدقا. قال :« فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد». فقال أبو لهب : تبا لك سائر اليوم ، ألهذا جمعتنا. فنزلت : ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ .

معركة بين الرسول ﷺ وقومه :

قامت معركة بين الرسول وقومه ، الرسول يدعو إلى التوحيد ، وهم يدعون إلى الوثنية . يدعو إلى الحق وهم متمسكون بالباطل . يدعو إلى الجنة وهم يدعونه إلى النار . ولكنه ﷺ ظل مستمسكاً بعُرَى دعوته ، لم يتزحزح قيد شعرة عن هذه الدعوة ، حاولوا أن يغروه بالمال ، بالمنصب ، بالملك ، بالسيادة ، ولكنه رفض ذلك كله . جاءه عتبة بن ربيعة ، وعرض عليه وقال له : يا ابن أخي إن كنت تريد بما جئت به مالاً ؛ جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنت تريد شرفاً سودناك علينا ـ جعلناك سيداً ـ حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد مُلْكاً ملّكناك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك رِئْياً من الجن (يعنون عفريت يتسلط عليك) جئنا لك بالأطباء لنعالجك ، إن كنت ... وإن كنت . . فماذا كان رد النبي ﷺ؟ لم يرد عليه بشيء ، وإنما قرأ عليه آيات من القرآن من أوائل سورة فصلت (بسم الله الرحمن الرحيم)﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ۝٤ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝٥ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ (فصلت:١-٧) إلى آخر هذه الآيات ، حتى وصل إلى قوله تعالى : ﴿ فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ﴾ (فصلت:١٣) ففزع الرجل وقال له : يا ابن أخي أناشدك الله والرحم أن تكف ، وعاد إلى قومه بوجه غير الوجه ، وقال لهم : دعوا محمداً وشأنه . فقالوا له : سحرك محمد ـ ذهب مندوباً لهم ليعرض عليه هذه العروض ، عساه أن يختار واحدا منها ـ ولكنه أسمعه شيئاً آخر ، قال لهم : هذا رأيي[1].

---

(١) راجع : البداية والنهاية لابن كثير (٦٨/٣ ، ٦٩) ، والسيرة النبوية لابن هشام (٢٩٤/١).

قريش تقاطع محمداً وأصحابه مقاطعة اقتصادية واجتماعية :

رفض محمد ﷺ المال والجاه والملك ، وكل ما يتطلع إليه الناس ، لأنه ما كان يريد مالاً ولا جاهاً ولا دنيا ، إنما كان يريد أن يبلغ دعوة ربه إلى الناس ، هذا ما يريده ، ما كان يريد الدنيا ، لو أراد الدنيا لقبل ما عرضه هؤلاء . وظل يكافح ، ويصبر على الأذى ، هو وأصحابه ؛ حتى قررت قريش أن تقاطع محمداً ، وتقاطع أصحابه ، وتقاطع من يحميهم ويدافع عنه ، مثل أبي طالب عمه ، الذي قدّر الله أن يظل على دين قومه ، وكانت هذه حكمة من الله ليحميه بجاهه .

قرروا أن يقاطعوا هؤلاء مقاطعة اقتصادية واجتماعية ، أي لا يبيعون لهم ، ولا يشترون منهم ، ولا يزوجوهم ، ولا يتزوجون منهم ، وحوصروا في شعب ، يسمى شعب أبي طالب ، دخله المسلمون كافة ، ودخله معهم بنو هاشم وبنو المطلب مسلمهم وكافرهم ، المسلم دخله باسم الإسلام ، والكافر دخله عصبية لمحمد ولمن معه من بني قومه ، وأصيب المسلمون بابتلاء شديد نتيجة هذه المقاطعة ، حتى سُمِع بكاءُ صبيانهم من بعيد من الجوع ، وحتى أكل المسلمون أوراق الشجر ؛ حتى دميت أشداقهم ، وجرحت أفواههم من الشجر الذي فيه الشوك ، حتى فرّج الله تبارك وتعالى عنهم ، بعد نحو ثلاث سنوات ، هيّأ الله رجالاً حموا وتحمسوا من أجل الرسول وأصحابه ، ومن أجل بني هاشم وبني المطلب ، وطلبوا نقد الصحيفة الظالمة القاطعة الجائرة ، التي تعاهدوا فيها على مقاطعة هؤلاء القوم وعلقوها في جوف الكعبة وشقوا هذه الصحيفة[1] .

---

(١) للمزيد من تفاصيل قصة الصحيفة الجائرة ، وأحداث شعب أبي طالب وما تخلل هذه الفترة من أحداث ، انظر : دلائل النبوة للبيهقي (٢/٨٠-٨٥) والسيرة النبوية لابن كثير (٢/٤٣-٧١) والروض الأنف للسهيلي (٢/١٠١-١٢٩) وزاد المعاد (٣/٢٦).

عام الحزن[1] :

ولكن النبي ﷺ بعد أن انتهى من هذه المحنة ؛ دخل في محنة أخرى ، فَقَدَ عمه أبا طالب الذي كان سنداً له في الخارج ، وفَقَدَ زوجته خديجة التي كانت سنداً له في الداخل ، وسَمّى هذا العامَ : عام الحزن ، وآذاه قومه بما لم يكونوا يقدرون على إيذائه به أيام عمه أبي طالب ، واشتدوا في إيذائه وإيذاء أصحابه .

رحلة الطائف[2] :

واضطر عليه الصلاة والسلام أن يخرج من مكة ، ويذهب إلى مكان آخر عسى أن يجد فيه قلوباً متفتحة ، وآذاناً صاغية ، فذهب إلى الطائف ، أقرب المدن إلى مكة ، وإلى أهله من بني ثقيف ، وظلَّ في الطائف نحو عشرة أيام لا يجد كبيراً ولا شريفاً إلا وعرض عليه دعوته ، ولكنهم آذوه أشد الإيذاء ، وقابلوه أسوأ مقابلة ، ولم يجد عندهم ما يمكن أن يقدم شيئاً لهذا الدين الجديد؛ بل سلطوا عليه سفهاءهم وصبيانهم ، وجلسوا صفين عن يمين وشمال، يرمونه بالحجارة حتى دميت قدماه ، ومعه مولاه زيد بن حارثة يدافع عنه ، حتى شُجَّ في رأسه ، ودُمي في قدميه ، وأكثر من دمي القدمين وجرح القدمين : أنه دمي قلبه ، وجرح قلبه ، نتيجة هذه المقابلة السيئة التي لم تعرف له قدراً ، حتى قال له بعضهم : ألم يجد الله في جزيرة العرب غيرك حتى يرسلك؟! وقال له آخر : إن كنت صادقاً فأنت أكبر من أن أكلمك! وإن كنت كاذباً فأنت أحقر من أن أكلمك! فلن أكلمك صادقاً أو كاذباً. وقال الثالث : لأمزقن أستار الكعبة.

وعاد من هذه الرحلة ؛ كسير الخاطر ، حزين القلب ، وشكا إلى ربه عز وجل ـ وإلى الله المشتكى وهو المستعان ـ شكا شكواه الأسيفة الرقيقة

---

(١) للمزيد من تفاصيل عام الحزن وقصة الطائف راجع : سيرة ابن هشام (٢/٧٨) وزاد المعاد لابن القيم (٣/٢٨) .

(٢) انظر : المرجعين السابقين .

الحزينة ؛ التي نحفظها كلنا حينما قال : «اللهم إني أشكو إليك ضَعْف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين ؛ أنت ربُّ المستضعفين ، وأنت ربي ، إلى من تكلني ؟! إلى بعيد يتجهمني ؟ أم إلى عدو ملكته أمري ؟ إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي ، ولكن عافيتي هي أوسع لي ، أعوذ بوجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن يحل عليَّ غضبك ، أو ينزل بي سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك»[1] .

بعد المحنة منحة :

وقد أكرمه الله بعد ذلك بأن أسلم على يديه في هذه الرحلة عدّاس خادم بستان عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأسلم على يديه الجن ، الذين جاء فيهم ما جاء في سورة الأحقاف وفي سورة الجن ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴾ (الجن:١،٢) ، كأن الله تعالى يقول له : إذا أعرض عنك الإنس ؛ فلقد أقبل عليك الجن ، ثم عوضه برحلة أفضل من هذه الرحلة ، وعوضاً عن هذه الرحلة كان الإسراء به ، إلى المسجد الأقصى ، ثم من المسجد الأقصى إلى السماوات العلا ، إلى سدرة المنتهى ، كانت رحلة الإسراء ورحلة المعراج ، رحلة أرضية ورحلة سماوية .

الجهاد الكبير طوال ثلاثة عشر عاماً :

عاش رسول الله ﷺ طوال ثلاثة عشر عاماً في مكة ؛ يجاهد جهاد التبليغ والبيان ، وجهاد الصبر والاحتمال على ما يلقى من الأذى ، وفي ذلك نزل قول الله تعالى في أوائل سورة العنكبوت ﴿ الٓمٓ ۝ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ

---

(١) انظر : تاريخ الطبري (٥٥٤/١) والحديث ذكره الهيثمي في المجمع ، وقال : رواه الطبراني وفيه ابن إسحاق وهو مدلس ثقة وبقية رجاله ثقات (٣٧/٧).

ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝ مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (العنكبوت:١-٦) ، هذا الجهاد كان جهاد الاحتمال والصبر والمثابرة في ذات الله ، وفي سبيل الله ، وفي سبيل دعوة التبليغ ، ودعوة الله ، كان هذا هو الجهاد الكبير ، ﴿ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ (الفرقان:٥٢)، طوال ثلاثة عشر عاماً ، جاهد النبي في تبليغ الدعوة ، ثم هاجر إلى الله عز وجل ، أذن الله له بالهجرة إلى المدينة ، إلى يثرب التي سميت بعد ذلك المدينة ، حيث بايع الأوس والخزرج بيعتين ، بيعة العقبة الأولى ، وبيعة العقبة الثانية ، وعاهدهم وعاهدوه على أن يهاجر إليهم ، وعلى أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وذراريهم وأنفسهم[1] .

وهاجر رسول الله ﷺ ، هاجر من مكة وقال :« والله ، إنك لأحبُّ بلاد الله إلى الله ، وأحبُّ بلاد الله إليَّ ، ولولا أن قومي أخرجوني منك ما خرجتُ »[2] . هكذا قال لها .

مرحلة الجهاد المسلح :

ذهب النبي ﷺ إلى مهجره الجديد ، إلى دار الإسلام الجديدة ، إلى قاعدة الإسلام الصلبة ؛ إلى يثرب ، أو إلى المدينة التي نورها قدومه ﷺ ، وحوله

---

(١) جزء من حديث رواه الطبراني في الكبير (٦/ ٢٨) وقال الهيثمي : رواه البزار والطبراني ، ورجال البزار والطبراني فيهما محمد بن عمرو ، وحديثه حسن ، وبقية رجاله ثقات (٦/ ١٩١).

(٢) رواه الترمذي في المناقب (٣٩٢٦) ، وقال : حسن غريب ، وأبو يعلى في المسند (٦٩/٥) ، وابن حبان في الحج (٣٧٠٩) ، وصححه الأرناؤوط ، والطبراني في الكبير (٢٦٧/١٠) ، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٣٠٨٢) ورواه الحاكم في المناسك (٦٦١/١) بلفظ :« ما أطيبك من بلدة ، وأحبك إليّ ، و لولا أن قومك أخرجوني ؛ ما سكنت غيرك » وصحح إسناده .

المهاجرين والأنصار ، وهنا بدأت مرحلة جديدة من الجهاد ، إنه الجهاد المسلح ، إنه الجهاد بالسيف ، إنه الجهاد بملاقاة الأعداء الذين أحاطوا به من كل جانب ، وكما قال النبي ﷺ لأصحابه : « لقد رمتكم العرب عن قوس واحدة »[1] .

كل العرب تجمعوا عليهم ، ووقفوا ضدهم ، اجتمع الباطل كله بخيله ورجله اجتمعوا على رسول الله ﷺ وعلى أصحابه ، وكان عليهم أن يعدوا العدة لملاقاة عدو الله وعدوهم كما قال الله عز وجل : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ (الأنفال:٦٠) وأعد النبي ﷺ ما استطاع لهذا الجهاد الدامي وهذه المرحلة الشديدة والقاسية ؛ من مراحل الدعوة إلى الله عز وجل ، وكان هو في مقدمة المجاهدين .

هيأه الله ليكون المجاهد الأول :

وقد هيّأ الله له أسباب الجهاد ، وأسباب القيادة حتى يكون المجاهد الأول ، كان عنده عدة الجهاد ، كان عنده الجسم القوي ؛ ليس ذلك الجسم المترف ، أو ذلك الذي قال فيه الشاعر :

خطرات النسيم تجرح خديـــــه ولمس الحرير يدمي بنانه

بل جسم تعود الخشونة ، رعى الغنم لأهل مكة[2] واشتغل بكد يمينه وعرق جبينه ، الله هيّأه لهذا ، هيأه ليتلقى الحياة بخيرها وشرها ، ويجربها بحلوها

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (٢٨/٦) ، وقال الهيثمي : رواه البزار والطبراني ورجال البزار والطبراني فيهما محمد بن عمرو ، وحديثه حسن ، وبقية رجاله ثقات (١٩١/٦) وأورده ابن إسحاق في سيرته (٢٩٧/١) وابن هشام في سيرته (٣/ ٣٢١).

(٢) إشارة إلى حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال :« ما بعث الله نبيا إلا رعى الغنم» . فقال أصحابه : وأنت؟ فقال : «نعم . كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة». رواه البخاري في الإجارة (٢٢٦٢) وابن ماجه في التجارات (٢١٤٩).

ومرها ، شاء الله أن يموت أبوه وهو في بطن أمه ، وأن تموت أمه وهو في السادسة من عمره ، وأن يموت جده ـ سيد مكة ـ وهو في الثامنة من عمره ، ليلاقي الحياة ويقاسيها ، بما فيها من ألوان الألم والعذاب ، ويكسب قوته بنفسه ، ليس كأولاد الذوات ، وأولاد الأسر الكبيرة ، وهو من أسرة كبيرة ، ولكن أباه لم يترك له مالاً ، أبوه مات في العشرين من عمره لم يكوِّن ثروة ، وكان عمه أبو طالب كثير العيال ، وليس عنده مال كثير ، فشاء الله أن يجابه الحياة بنفسه ويعمل بنفسه ، ويرعى الغنم ، ويتعلم في جو البادية ، وجو الصحراء ، وجو المراعي .

هكذا أراد الله لنبيه ﷺ أن ينشأ هذه النشأة ، ويعيش على أقل القليل ، على ما خَشن من العيش ، على ما قلّ من الطعام والشراب ، ولذلك كان جسمه معداً للجهاد في سبيل الله ، كان جسماً قوياً ، حتى إن أحد المصارعين المعروفين ، واسمه ركانة أراد أن يصارعه ﷺ وجعل إذا غلب محمداً يأخذ منه شاة وإذا غلبه هو أعطاه شاة ، ولكن النبي ﷺ صارع ركانة فصرعه ، ثم تنازل له عن الشاة وقال له :« ما كان لنا أن نصرعك ونأخذ غنمك»[1] ، ودخل الرجل في الإسلام .

---

(١) قصة مصارعة النبي ﷺ لركانة رواها أبو داود في اللباس (٤٠٧٨) والترمذي في اللباس (١٧٨٤) وقال : هذا حديث حسن غريب ، وإسناده ليس بالقائم ، ولا نعرف أبا الحسن العسقلاني ، ولا ابن ركانة ، وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي (٣٠٠) ، وفيه عن علي بن ركانة عن أبيه : أن ركانة صارع النبي ﷺ فصرعه النبي ﷺ ، وفي رواية أخرى : عن عبد الله بن الحارث قال : صارع النبي ﷺ أبا ركانة في الجاهلية ، وكان شديدا ، فقال : شاة بشاة ـ كان هذا قبل تحريم القمار ، أو أن النبي لم يقبل هذا ، ومن ثمّ لم ينفذه ـ فصرعه رسول الله ﷺ. فقال أبو ركانة : عاودني ، فصارعه فصرعه رسول الله ﷺ أيضا. فقال : عاودني في أخرى ، فعاوده فصرعه رسول الله ﷺ أيضا. فقال أبو ركانة : ماذا أقول لأهلي؟! شاة أكلها الذئب ، وشاة تكسرت ، فماذا أقول للثالثة !! فقال النبي ﷺ : « ما كنا لنجمع عليك أن نصرعك ونغرمك ، خذ غنمك» رواه عبد الرزاق في مصنفه (١١/ ٤٢٧) وحسّن هذه الرواية الألباني في غاية بلوغ المرام (٣٧٨).

المجاهد الأول في ميدان المعركة :

كان ﷺ يركب الفرس مُعْرَوْرِياً[1] لا سرج له ولا لجام ، كان الجسم جسماً قوياً خشناً معداً للجهاد في سبيل الله ، وكانت نفسه نفساً شجاعة لا تعرف الخوف إلا من الله عز وجل ، ولذلك يقول فارس الإسلام علي بن أبي طالب : كنا إذا احمرت الحدق ، وحمي الوطيس ، واشتد البأس ، اتقينا برسول الله ﷺ فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه .[2]

هكذا كان عليه الصلاة والسلام ، جسم قوي ، نفس شجاعة لا تخاف ، بل كان يتمنى أن يقتل في سبيل الله ويقول :« لولا أن أشق على أمتي ؛ ما قعدت خلف سرية أبداً »[3] . النبي عليه الصلاة والسلام غزا سبعاً وعشرين غزوة حضرها بنفسه ، وشارك فيها بنفسه ، وبعث بضعة وخمسين سرية من أصحابه ، فكان إذا خرج يخرجون معه ، فكان يبعث مجموعة من أصحابه فقط ، وكان يقول :« ولوددت أن أقتل في سبيل الله ، ثم أحيا ، ثم أقتل ، ثم أحيا ، ثم أقتل »[4] .

هكذا كان ﷺ ، كان قلبه موصولاً بالله ، والقلب الموصول بالله لا يخاف أحداً إلا الله ، كان إذا دخل المعركة استعان بالله عز وجل وقال :« اللهم إنا

---

(١) روى ذلك أنس قال : كان النبي ﷺ أحسن الناس ، وأجود الناس ، وأشجع الناس ، ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة فانطلق الناس قبل الصوت ، فاستقبلهم النبي ﷺ قد سبق الناس إلى الصوت ، وهو يقول :« لن تُراعُوا لن تُراعُوا » . وهو على فرس لأبي طلحة عُرْي ما عليه سرج في عنقه سيف فقال : « لقد وجدته بحرا ، أو إنه لبحر ». رواه البخاري في الجهاد والسير (٦٠٣٣) ومسلم في الفضائل (٢٣٠٧) وابن ماجه في الجهاد (٢٧٧٢) والترمذي في أبواب الجهاد (١٦٨٧) والنسائي في « الكبرى » في عمل اليوم والليلة (١٠٨٣٧).

(٢) رواه أحمد (١٣٤٧) وقال محققوه : إسناده صحيح ، والنسائي في الكبرى في السير (٨٥٨٥) والحاكم في المستدرك في تقسيم الفيء (٣/ ١٥٥) وصححه ووافقه الذهبي.

(٣) رواه البخاري في الإيمان (٣٦) عن أبي هريرة ، وهذا لفظه ، ومسلم في الإمارة (١٨٧٦) وابن ماجه في الجهاد (٢٧٥٣).

(٤) تتمة الحديث السابق .

نجعلك في نحورهم ، ونعوذ بك من شرورهم[1] » ، « اللهم منزل الكتاب ، ومجري السحاب ، وهازم الأحزاب ؛ اهزمهم وانصرنا عليهم »[2] . كان يقوي أصحابه بهذه الأدعية التي تشد أزرهم وتقوي ظهرهم ، وتنفخ في روحهم .

هكذا كان عليه الصلاة والسلام ، كان معداً ليقود الجهاد في سبيل الله ، كان متمرساً على الحرب ، وأدوات الحرب كلها ، وكان يُغري أصحابه بذلك ويحرضهم على ذلك كما قال الله تعالى : ﴿ فَقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (النساء:٨٤) وقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ﴾ (الأنفال:٦٥) فكان يحرضهم وهو أسوة لهم ، كان يتقلد السيف ويلبس الدرع والخوذة ، الدرع على صدره ، والخوذة على رأسه ، ويترس بالترس ، ويحمل الرمح والقوس العربية ، ويرمي بالنبل ، قاتل وقَتل ، قَتل أُبيّ ابن خلف في غزوة أحد ، حينما أراد أن يقتل رسول الله ﷺ فقال له :« بل أنا أقتلك » فضربه فأصيب ، ولما رجع إلى مكة قيل له لا بأس عليك ، الجرح يسير ، فقال لهم : إن محمداً قال : سأقتلك ، فوالله لو بصق عليَّ لقتلني[3] .

هكذا كان ﷺ ، أعده الله ليجاهد في سبيله ، فعاش عمره في المدينة عشر سنوات ، في السنة الأولى كانت هناك مناوشات بينه وبين القبائل من حول المدينة ، وكان عليه أن يرسل السرايا من أصحابه لتؤمِّن ما حول المدينة ، وكان على هؤلاء الأعراب إما أن يستجيبوا فيعاهدوا النبي ﷺ ، وإما أن يؤدبهم ؛ لأنه يستعد لمعركة قادمة ، يعلم أنها آتية لا ريب فيها ، ثم كانت غزوة بدر ، وكانت غزوة أحد ، وكانت غزوة الخندق ، أو غزوة الأحزاب ، وكانت غزوة

---

(١) رواه أحمد (١٩٧٢٠) عن عبد الله بن قيس ، وقال مخرّجوه : حديث حسن ، ورواه أبو داود في الصلاة (١٥٣٧) والنسائي في الكبرى كتاب عمل اليوم والليلة (١٠٣٦٢) .

(٢) متفق عليه : رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٩٣٣) ، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٤٢) ، وأحمد في المسند (١٩١٠٧) ، والترمذي في الجهاد (١٦٧٨) ، وابن ماجه في الجهاد (٢٧٩٦) ، عن عبد الله بن أبي أوفى .

(٣) راجع : السيرة النبوية لابن هشام (٩٣/٣ ، ٩٤) .

الحديبية ، وكانت غزوة خيبر ، وكان فتح مكة ، وكانت معركة الطائف ، ومعركة حنين ، تسع غزوات كبرى ، من سبع وعشرين غزوة حضرها النبي ﷺ ، وأربع وخمسون أو خمس وخمسون سرية ؛ بعثها النبي ﷺ من أصحابه إلى جهات شتى .

هذا الدين لم يأت إلينا عَفْواً صَفْوا :

هذه الحرب الطويلة أيها الإخوة ، جعلت كل بيت في المدينة يقدم شهيداً أو أكثر ، ما من دار من الدور ولا أسرة من الأسر ، إلا وقدم شهيداً أو أكثر من الشهداء ، هذا الدين الذي ننعم به اليوم ، ونستظل بظله الوارف ، لم يأت إلينا عَفْواً صَفْواً ، لم يأت إلينا غنيمة باردة ، ولا لقمة سائغة ، لقد بُذِلت فيه الجهود ، أُريقت فيه الدماء ، أُزهقت فيه الأرواح ، قُدِّمت فيه التضحيات ، ينبغي أن نذكر فضل الله علينا .

أيها الإخوة : إن هذا الدين الذي ورثناه عن آبائنا ولم نبذل فيه شيئاً ، قُدّم من أجله الكثير وفي سبيله الكثير . كان ﷺ وأصحابه يحاربون في عدة جبهات ، الجبهة الوثنية في مكة وفي جزيرة العرب ، والجبهة اليهودية التي غدرت برسول الله ﷺ ونقدت عهده ، وهناك جبهة أخرى متربصة أرادت أن تغزو النبي قبل أن يغزوهم ، فغزاهم هو قبل أن يغزوه ، الروم النصارى الذين التقى بهم في سرية مؤتة ، وفي غزوة تبوك . وكان هناك الفرس الذين يقفون من قريب في إيران في دولة فارس ، التي هي إحدى الدولتين الكبريين في العالم ، تتنازع السيادة على العالم مع الروم ، وكان هناك جبهة داخلية أخطر من هؤلاء جميعاً هي جبهة المنافقين ، جبهة المنافقين الذين يقولون : ﴿ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴾ (البقرة:٨-١٠)، هذه الجبهات واجهها رسول الله ﷺ ، فكيف

واجهها ، وكيف انتصر عليها ؟ عسى الله أن يهيئ لنا حديثاً في الخطبة القادمة إن شاء الله . أقول قولي هذا ، وأستغفر الله تعالى لي ولكم ، فاستغفروه ، إنه هو الغفور الرحيم ، وادعوه يستجب لكم .

* * *

● **الخطبة الثانية :**

أما بعد . . . فيا أيها الإخوة المسلمون :

تحية لشباب المقاومة الاستشهاديين :

لا نستطيع من فوق هذا المنبر ؛ إلا أن نُحَيِّي هذا الشباب المؤمن الشباب الذي وضع رأسه على كفه ، وقدم نفسه لقضيته ، وللمسجد الأقصى ، وللأمة الإسلامية كلها ، نُحيي هؤلاء الشباب ؛ شباب المقاومة الإسلامية ، شباب الجهاد الإسلامي الذين يروّعون أعداء الله ما بين الحين والحين ، بهذه العمليات البطولية الاستشهادية التي أثبتت أن المسلمين لا يزالون قوة مؤثرة ، وأن المسلم يستطيع أن يجعل من نفسه قنبلة بشرية تواجه القنبلة النووية ، هذا الشباب الذي فجّر التفجير الأخير ، الذي أرعب اليهود ، أدخل الرعب في قلوبهم ، زلزل الأرض من تحت أقدامهم ، عشرون قتيلاً من المجرمين ، ومائة أو أكثر من مائة من الجرحى ، هؤلاء نحييهم ونشد على أيديهم ، ونقول لهم : استمروا في جهادكم ، ما دام الاحتلال قائماً ، وما زال الظلم مستمراً ، ما دام هذا الطغيان يتحكم في الرقاب ، ويتسلط على عباد الله ، ما دام شارون متألهاً في الأرض ، يزعم أنه أشد قوة من عاد وثمود ﴿ **أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً** ﴾ (فصلت:١٥).

شارون الذي يتحدى ، ويتصدى ، ويتعدى ؛ ولا يبالي ، لأنه وجد أمة للأسف كأنما هي ميتة ، كأنما نخاطب أصحاب القبور ، الأمة التي استيأست ؛ يجب أن يكون هناك شباب يُحيي مواتها ، ويَنْفُخ فيها الروح من جديد ، هذا

الشباب البطولي ، هذا الشباب الفدائي ؛ الذي يُفجر نفسه في أعداء الله ، هو دليل على حيوية هذه الأمة ، ينبغي أن ندعو لهؤلاء الذين استشهدوا في سبيل الله ، ندعو لهم بالرحمة ، وبالجنة ، وبأعلى المراتب عند الله عز وجل ، وندعو للشعب الفلسطيني بمزيد من تخريج مزيد من هؤلاء التلاميذ ، تلاميذ مدرسة الجهاد المحمدي ، الجهاد النبوي ، هؤلاء التلاميذ هم الذين سيُحيون القضية ، هم الذين يفرضون على شارون وغير شارون أن يطالب بالتفاوض ، ينبغي أن يستمر الجهاد ، وأن تستمر المقاومة ، وأن تستمر الانتفاضة ، وكل عمل لإجهاض الانتفاضة وإيقافها هو ضرب من الخيانة لله ولرسوله ، ضرب من الخيانة للأمة وللأقصى وللقدس ، ضرب من الخيانة لقضية فلسطين .

يجب أن تستمر الانتفاضة ويجب أن تدعم الانتفاضة ، ويجب أن نؤيد الانتفاضة بما نستطيع ؛ بأنفسنا إن استطعنا ، بأموالنا إن لم نستطع الجهاد بالأنفس ، بدعائنا في الصلوات والخلوات والأسحار ، بإنجادنا لهم بما استطعنا من أموال ، بمقاطعة البضائع الصهيونية والأمريكية ، بكل ما نستطيع علينا أن نؤيد الانتفاضة ونؤيد إخواننا في الانتفاضة ، ولا نتراجع عن موقفنا أبداً ، نحن أصحاب حق ، كيف نتخلى عن حقنا والمبطلون يريدون بباطلهم أن يضيعوا حقنا ، وأن يميتوا حقنا ، وأن يجبرونا أن نتنازل عن حقنا؟

الغريب الدخيل الطريد ؛ الذي جاء من بلاد شتى ، واحتل الأرض ، وانتهك العرض ، وداس الحقوق والحرمات ؛ هذا يريدنا أن ننزل عند رأيه ؛ ولن ننزل ، لن ننزل ما دام فينا مثل هؤلاء الشباب الذين يفجرون أنفسهم في أعداء الله ، هذا ما نؤيده ، وما نرحب به ، وما نحييه ، وإذا مات أحد من المدنيين فأنا أقول : كل المجتمع الإسرائيلي عسكري ، من لم يكن في الجيش اليوم يمكن أن يُستدعى غداً ، وإذا مات طفل أو نحو ذلك فهو غير مقصود ، إنها ضرورة الحرب وللحرب ضرورات والضرورات تبيح المحظورات .

* * *